

المنهج الخفي: أي دور في العملية التربوية؟

د. شوقي قاسمي - د. صباح سليمان

جامعة بسكرة

الملخص :

يمثل المنهج الخفي آلية مهمة في فهم جوانب الغموض التي تلف العملية التعليمية، إذ غالبا ما نبحث عن أسباب الإخفاقات التربوية في نطاق المناهج الرسمية وما يمكن أن ينتابها من عيوب، أو نركز البحث في الطرق المعتمدة لتطبيق تلك المناهج..، لكن من المهم كذلك البحث في الجوانب الخفية التي يمكن أن تشكل إطارا تفسيريا هاما للكثير من تلك الإخفاقات. إن المنهج الخفي قد يشكل بالتالي عاملا مساعدا في تفسير بعض جوانب الفشل في تحقيق الأهداف التربوية، حيث يشير المهتمون بالشأن التربوي إلى أنه كثيرا ما توجد فجوة كبيرة بين النتائج المفترضة وبين الواقع الملموس بحكم ما بذل في بناء المناهج الرسمية ومتطلبات تطبيقها المادية والبشرية، مما يعني أن هناك مجالا آخر مهما يحتاج للبحث يرتبط أساسا بنطاق المنهج الخفي. وهذا ما سنتناوله بالدراسة في هذا المقال.

Résumé

Le Curriculum caché représente un mécanisme important pour comprendre les ambiguïtés qui endommagent le processus éducatif, recherchent souvent les causes des échecs scolaires dans le cadre du programme officiel et ce comité pourrait avoir des défauts, ou se concentrer sur la recherche dans les méthodes adoptées pour mettre en œuvre les programmes, mais il est aussi important de rechercher dans les aspects cachés qui constituent un cadre explicatif important pour de nombreux échecs.

Le curriculum caché peut donc constituer un facteur déterminant dans l'interprétation de certains aspects de l'échec à atteindre les objectifs éducatifs en Algérie, où les personnes intéressées par les questions d'éducation indiquent la présence d'un écart important entre les résultats hypothétiques et la réalité concrète en vertu de ce qui s'est passé dans la construction du programme officiel et les exigences de l'appliquer du matériel et des ressources humaines, ce qui signifie qu'il existe un autre domaine important besoin de chercher principalement l'associée à la portée du programme caché.

مقدمة

يمثل المنهج التربوي الركيزة الأساسية لأي عملية تعليمية، فهو يتشكل من الأهداف والمحتوى والأنشطة التعليمية إضافة للتقييم، لذلك يحاول القائمون على النظم التربوية في أي مجتمع من المجتمعات توحيد الجهود وتركيزها على بناء تلك المناهج التربوية، وصياغتها بصورة تمكنها من أداء دورها بفاعلية حتى يتم تحقيق الأهداف المسطرة.

إن إفرار العملية التعليمية لنتائج بعيدة عن الأهداف الموضوعية لها مسبقاً، والتي قد تصل حد التعارض معها في كثير من الأحيان،- يطرح العديد من التساؤلات حول الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ذلك، وغالباً ما يقف الجميع عاجزين عن تفسير هذا الفشل الحاصل في بلوغ الأهداف. إن العنف والتسرب والتأخر الدراسي..، كلها مشاكل تعانيها النظم التربوية في العديد من البلدان على الرغم من المساعي والإمكانيات التي تبذل في سبيل تجاوزها، بدءاً من وضع المناهج الرسمية، والتي كثيراً ما يتم تحميلها عبء المشاكل التي يعانيتها المجتمع.

إن عدم الوضوح في العوامل التي أحكمت صناعة الفشل في تجسيد الأهداف التربوية، يستدعي منا البحث الجاد في إشكالية المنهج الخفي بوصفه الخيط الفاصل بين المنهج الرسمي الذي يفترض أنه إطار محكم البناء يشخص الطرائق العلمية القادرة على تحويل الأهداف إلى سلوكيات، وبين تطبيقه الفعلي على الواقع التعليمي- أي المنهج الواقعي-، وذلك من خلال التساؤل عن ماهية المنهج الخفي وعن الدور الحقيقي الذي يقوم به في العملية التربوية؟

أولاً- تحديد مفهوم المنهج الخفي Le Curriculum Caché

تعني الكلمة الإنجليزية الدالة على المنهج: "curriculum" مضمار السباق، وأحياناً تستخدم كمرادف لكلمة مقرر، وأحياناً أخرى كبديل عنها؛ وتعني عموماً كمية المعرفة التي يطلب من المتعلمين دراستها وتعلمها خلال العام الدراسي¹. أما تناول السوسولوجي لمفهوم المنهج التربوي فيقوم على اعتباره نظاماً فرعياً من النظام الرئيسي المتمثل في النظام التربوي، والذي يعد بدوره نظاماً فرعياً للنظام الأم والمتمثل في النظام الاجتماعي. ويتكون أي منهج من عناصر أربعة هي: الأهداف، المحتوى، طرق التدريس والتقييم، والتي يؤثر كل منها في الآخر ويتأثر بالآخر، وجميعها تؤثر في المنهج². والتحديد الأخير يوضح التطور الذي عرفه مفهوم المنهج حيث تغير تغيراً كبيراً من حيث مدلولاته ومعانيه مما جعله يختلف تماماً عن المعنى الذي عرفه سابقاً والذي كان يركز على المقررات الدراسية ليصبح أكثر ثراءً واتساعاً.

فالمنهج بمثابة البرنامج الذي يصمم من قبل مختصين وخبراء كي يتمكن التلاميذ من السيطرة بفاعلية على الأنشطة والخبرات التي تحقق لهم مردودات تربوية إيجابية، مع مراعاة أن بعض هذه الأنشطة والخبرات محدد في صورة مجموعة من العمليات الإجرائية، بينما بعضها الآخر غير محدد ويتسم بالعمومية. وتطلق على المنهج الخفي تسميات عدة منها: المنهج غير المقصود، الباطن، غير المقرر، الضمني، الموازي..، ويوصف المنهج الخفي بأنه: "المعرفة، القيم، السلوك، العادات والمعتقدات التي يكتسبها الأفراد أثناء العملية التعليمية بطريقة عفوية أو غير واعية. ولا يكون للمنهج الخفي أية فائدة إلا إذا ارتبط بأنواع المنهج الأخرى، وهي المنهج الرسمي والمنهج غير الرسمي (الواقعي)".

¹. سهيلة محسن كاظم الفتلاوي، هلاي أحمد، المنهاج التعليمي والتوجه الإيديولوجي، دار الشروق، عمان، الأردن، 2005. ،

². عبد الحافظ سلامة، الوسائل التعليمية والمنهج، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000، ص. 19.

وبناء على ما سبق فهو يمثل: " كلا مركبا من المعارف والخبرات والاتجاهات والقيم والمهارات التي يكتسبها المتعلم خارج المنهج المعلن، وهو يمارسها طواعية ودون إشراف المعلم، أو علمه في معظم الأحيان، من خلال تفاعله مع المعلمين والإداريين والمتعلمين أنفسهم، ومن خلال ممارسته للأنظمة والقوانين والتعليمات، ومن خلال التعلم بالقدوة وبالملاحظة والتعلم بالمجموعة، وممارسة الأنشطة المنهجية غير الصفية.¹ كما عرف "جاكسون" المنهج الخفي بأنه: " التحصيل المدرسي الثاني بعد التحصيل الأكاديمي الذي يعد التحصيل الأول". وبذلك أوجد "جاكسون" علاقة بين المنهجين: المعلن والخفي.² فمثلا: المكافأة والجزاء بدرجات متفاوتة لتمرين منجز، قد يكون القصد منها القياس الأكاديمي وأيضا مكافأة أو عقاب المتعلم. لكنها وبدون قصد تعلمه درسا أخلاقيا في أهمية تحمل المسؤولية والعمل، أو في التنافس مع الزملاء، أو في التوجه للسلوك غير المرغوب كالتسرب أو الهروب من المدرسة..

الأمر الذي يجعلنا نقول بأن مفهوم المنهج الخفي يشير إلى مختلف العمليات التربوية غير المبرمجة وغير المعلنة التي تجري داخل المجال المدرسي، حيث يتعلم التلميذ أشياء كثيرة إضافة إلى ما تهدف المدرسة تعليمه إياه من خلال مناهجها ومقرراتها الرسمية والمعلنة. ووفقا لهذا التصور فإن المنهج الخفي يشكل أحد الآليات الهامة التي تساعد على فهم وتفسير سير العملية التعليمية، باعتباره أحد المفاهيم التي توظف في الكشف عن الجوانب غير الواضحة في الحياة الاجتماعية التربوية.

ثانيا- بداية اهتمام سوسولوجيا التربية بالمنهج الخفي

تنسب أولى الأدبيات المسجلة عن المنهج الخفي إلى "جوليس هنري"، Henry Jules الذي طور في سنة 1966 مخططا لتفاعل الثقافة مع التربية في دراسته الانثروبولوجية. ثم ظهرت كتابات "فليب جاكسون" Phillip Jackson عام 1968.³ الذي يعتبر في بعض الأدبيات أول من اخترع مصطلح المنهج الخفي، وذلك في كتابه: الحياة داخل الصفوف الدراسية عام 1968، في محاولة منه لجلب الانتباه إلى فكرة أن المدارس تقوم بأكثر من مجرد المساعدة على نقل المعرفة من جيل إلى آخر⁴، حيث سعى إلى إيجاد الصلة بين المنهجين: المعلن والخفي. ثم تنامت هذه الفكرة بعد ذلك من خلال التوجهات المعلنة من قبل العديد من الباحثين التربويين والسوسولوجيين الذين بدؤوا الحديث عن الأدوار الخفية للمدارس، والذين نذكر من بينهم: بيار بورديو وباسيرون و"إيفان إليتش".

حيث يذهب هذا الأخير إلى مشاطرة رأي "فليب جاكسون" في أهمية المنهج الخفي، معتقدا أن أي منهج مهما بلغ من الثراء والملائمة، لا يؤثر في فئات الطلاب كما يفعل المنهج الخفي، والذي يعد أقوى

¹. إسحاق الفرحان، توفيق مرعي، المنهاج التربوي، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، مصر، 2009. ص، 26.

². المرجع السابق، ص، 25.

³. سهيلة كاظم الفتلاوي، أحمد هلاي- مرجع سابق- ص ص. 50-51.

⁴. إسحاق الفرحان، توفيق مرعي - مرجع سابق- ص، 25.

تأثيراً وأكثر تحكما في مجريات العملية التعليمية، بل يعتقد أيضا أن المدرسة تقضي على روح المبادرة عند الطلاب أحيانا، وتنمي فيهم البلادة وعدم المشاركة، وتنقل إليهم في معظم الأحيان نوعا من التعليم غير الملائم. وأنها تلجأ في عملها إلى الانتقاء الذي يكون تعسفيا، وغير ملائم، تسلطيا، ولا يستجيب عموما لحاجات المتعلمين، وتكون غاياتها نيل الطالب للشهادة والنجاح في الامتحانات.¹

ركز "إليتش" في تحليله للنظام التربوي على المناهج التربوية، حيث توصل إلى أن ما يجري تعلمه في المدارس لا علاقة له بمضمون الدروس، فالمدارس تتوخى تلقين الطفل الاستهلاك السلبي أي القبول الطوعي بالنظام الاجتماعي القائم، ولا يجري تعليم هذه الدروس بصورة واعية ومعلنة، بل بصورة ضمنية من خلال تنظيم المدرسة وإجراءاتها وذلك من خلال المنهج الدراسي الخفي، حيث يتم تعليم الأطفال أن دورهم في الحياة ينحصر في أن يعرفوا مكانهم ويلزموه، وأن يمكثوا فيه قانعين مستكينين، وبذلك تصبح هذه الأخيرة هي هدف النظام التربوي الذي يسعى إلى تحقيقه. وحتى إن كان ذلك بصورة غير واعية فهو يندرج تحت ما يسميه "روبرت ميرتون" الوظائف الكامنة "للنظام الاجتماعي.

إن المدارس حسب "إيفان إليتش" أصبحت تؤدي أربعة واجبات أساسية هي: تقديم الرعاية التأديبية، توزيع الناس وفق أدوار مهنية محددة، وتعليم القيم المهيمنة، واكتساب المهارات والمعارف المقبولة اجتماعيا.² وقد ربط "جاكسون" المنهج الخفي بعملية التعليم غير المقصود، أو التعلم المصاحب، وهو يرى أن تأثير هذا التعلم (المنهج الخفي) أكبر من تأثير المنهج المعلن. ومن ثم بات على المدرسة أن تأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار، فتبني لنفسها منظومة قيمية خاصة بها، تكسبها لكل طلابها فتكون موطن اعتزاز وافتخار وولاء بالنسبة لهم. أما "إليزابيث فالانس" Elizabeth Vallance فتري أن المنهج الخفي موجود في كل شيء في المدرسة، سواء تعلق الأمر بتفاعل الطلاب والمعلمين، أو في بنية الصف والتنظيمات المدرسية والمنظومات القيمية، وفي مختلف الفعاليات المدرسية مثل: عملية اكتساب القيم وعملية التنشئة الاجتماعية، وعملية التحصيل الدراسي، أي أنه يشتمل على كل ما في المدرسة وعملياتها المختلفة عدا تعلم الطلاب الأكاديمي.³

ومن المنظرين السوسولوجيين الذين سعوا لاستجلاء الدور الخفي للمدارس نجد كلا من "بورديو" و"باسيرون"، الذين يذهبان إلى أن بنية النظام المدرسي ووظيفته يعملان على ترجمة اللامساواة في المستوى المدرسي، فليس للمدرسة من مهمة حسبهما سوى تعزيز وتأكيد الطبقة الاجتماعية السائدة والعمل على إعادة إنتاج العلاقات الطباقية القائمة ثم إعطائها طابع الشرعية في آن واحد.⁴ يجب إدراك تأثير ونفوذ الثقافات

¹. أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، ترجمة: فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005، ص. 560.

². إسحاق الفرخان، توفيق مرعي - مرجع سابق - ص، 26.

³. وطفة علي أسعد، علي جاسم شهاب، علم الاجتماع المدرسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،

2004، ص، 183.

⁴. Pierre Pourdieu; Le sociologue de l'éducation. Francois Dubet, .

<http://www.homme-moderne.org/societe/socio/dubet/Bml9810.html>

داخل الصف الدراسي. فبدون شك الثقافة المدرسية ليست هي الثقافة البرجوازية المباشرة لكنها تتفق معها مباشرة، لاسيما عبر الرموز السلوكية، اللغوية والفكرية التي تعبر عنها. من وجهة النظر هذه وحتى تكون عملية غرس الثقافة فعالة، من الأهمية بمكان أن ينسى الفاعلون ولا سيما الأساتذة، هذا الرابط أو يرفضونه. إن المطلوب هنا هو فقدان الفاعلين الأساسيين لبصرهم لعمل النظام من خلال المدرسة الخطابية. وينظر إلى مدرسة الطبقة على أنها مدرسة عالمية ترفض الاعتراف بالاستبداد الثقافي الذي تستند إليه. ويعتبر عمل المدرسة ولا سيما العلاقة البيداغوجية، كآلة لإعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية، وأنه ليس هناك مساواة في الفرص لأن المواهب والهبات توزع بشكل غير متساو، لأن المدرسة تشجع المواقف والأحكام.¹

ومعنى هذا أن هدف النظام التربوي هو إعادة الإنتاج الثقافي للمجتمع فتكون بذلك المدرسة طاحونة تعيد إنتاج ما قدم إليها، فهي تستقبل أطفالا من فئات اجتماعية مختلفة لتعيد إنتاج الفئات الاجتماعية نفسها، حيث أن ابن الطبقة العاملة يتخرج من المدرسة عاملا وابن الطبقة البرجوازية يتخرج منها إداريا. ولن يتحقق هذا الهدف إلا بواسطة طرق ووسائل ينتهجها النظام التربوي لإدامة نواحي اللامساواة، وتظهر هذه الطرق من خلال طبيعة العملية التعليمية كما أقر "بورديو"، فالعلاقات التفاعلية التي تربط كلا من المعلم والمتعلم تحكمها مجموعة من القيم التي يحملها كلا الطرفين عن الآخر، والتي تتجلى في التالي:

❖ اعتقاد المدرسين أن الوضع الطبقي للمتعلمين من شأنه أن يؤثر على مستويات التحصيل والتفوق الدراسي.

❖ ميول المعلمين نحو أبناء الطبقات العليا وأسلوب حياتهم وتحصيلهم الدراسي.

❖ عدم عدالة التوزيع في الاهتمام بالتلاميذ، والذي يتحدد حسب الانتماءات الطبقيّة للمتعلمين.

❖ إيديولوجية الاختبارات التي تهدف إلى تقليص عدد أبناء الطبقات الفقيرة من الالتحاق بالمراحل التعليمية العليا في المجتمع الرأسمالي.²

الأمر الذي يجعل من مقاربات "بيار بورديو" التي طرحها في عدد من كتاباته كالورثة وسوسيولوجيا المدرسة..، كانعكاس نقدي للتصاميم الكلاسيكية الخاصة بالمدرسة والتربية. وهي الأفكار التي شكلت محور اهتمام عدد كبير من علماء الاجتماع بعد ذلك، حيث جاءت معظم أعمالهم كامتداد وإضافات أو توضيحات لنظرية "بيار بورديو" في إعادة الإنتاج.

ثالثا - مكانة المنهج التربوي الخفي ضمن المناهج الأخرى

اتسمت كتابات الكثير من الباحثين بالتنوع إزاء إشكالية تقسيم المناهج، ففي الوقت الذي يرى عدد منهم أنها تصنف عموما إلى ثلاثة أنواع هي: المنهج الرسمي والمنهج الواقعي والمنهج الخفي، فإن آخرين على غرار "جلاتهورن" "glatthorn" قدموا صيغا أخرى، حيث يذهب هذا الأخير مثلا في كتابه قيادة

¹. عبد الرحمان عبد الله محمد، علم اجتماع المدرسة، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، 2001، ص 233.

². فائزة محمد فخري العزاوي، المنهج الخفي: فلسفته وتطبيقاته التربوية، مجلة البحوث التربوية والنفسية، العددان التاسع

والعاشر، ص، 49

المنهج، إلى أن المناهج تنقسم إلى سبعة أصناف وهي: المنهج الموصى به والمنهج المكتوب والمنهج المدعم والمنهج المدرس والمنهج المختبر والمنهج المعلم وأخيرا المنهج الخفي¹. ويبقى لكل واحد من هذه المناهج سماته وأهدافه وآليات تنفيذه، مع ميزة مشتركة بين كل هذه التصنيفات، وهي أن المنهج الخفي يسجل حضوره القوي بينها جميعا.

2-1- المنهج الرسمي (الشكلي، التقليدي): Le Curriculum Formel

إن المفهوم السائد للمنهج على الصعيد الرسمي يعني: "وثيقة المنهج الرسمية المقررة من وزارة التربية، وهي الوثيقة التي تتضمن الأهداف العامة والمحتوى المعرفي والأساليب والأنشطة التعليمية وأساليب التقويم، وتسمى أيضا بوثيقة المقررات الدراسية عند بعض البلدان". في حين يسمى لدى البعض الآخر على غرار "جودلاند" "goodland"، بالمنهج المكتوب، وهو "المنهج الذي تقره وزارة التربية والتعليم وتوضع له الكتب المدرسية المقررة رسميا"².

هذا المعنى يجعل المنهج الرسمي حوصلة لمجموعة من العناصر والأدوات الآتية: الفلسفات التربوية المعتمدة في المجتمع، السياسات التعليمية المتبعة، نوعية المحتوى، نوعية الأنشطة الصفية وغير الصفية، توظيف تكنولوجيا المعلومات، مصادر المعلومات المتنوعة، إمكانيات المدرسة من أبنية وأجهزة متنوعة، أساليب القياس والتقويم، وبرامج إعداد المعلم وتأهيله، والعلاقة التفاعلية بين المدرسة والمؤسسات الاجتماعية والثقافية الأخرى³.

إن المنهج الرسمي يتضمن كل الوثائق الرسمية التي تضع حدود العملية التعليمية، بدء من رسم السياسة التعليمية وفلسفتها، إلى اختيار موضوعاتها، وسائلها، أنشطتها، أساليب تقويمها، وغيرها من الجوانب. ليبقى تطبيق هذا المنهج الرسمي على أرض الواقع مرتبطا بعناصر أخرى تجعله مختلفا إلى حد ما عن الصورة الأولى التي وضع عليها، وهذا ما أوجد لنا ما يسمى بالمنهج الواقعي.

2-2- المنهج الواقعي (غير الرسمي، الفعلي): Le Curriculum Real

يفترض عادة ارتباط المنهج الواقعي بالمنهج الرسمي، لكن وبحكم وجود اختلافات في تطبيق المنهج الرسمي وفي الممارسات والمواقف التعليمية داخل الفصل الواحد من تدريس مادة إلى أخرى، وكذلك ما يجري داخل القسم وخارجه من ممارسات أو إجراءات، كل ذلك أدى إلى وجود فجوة واسعة بين المنهج الرسمي الذي خطط له مسبقا بوسائل مدروسة، وبين المنهج الواقعي قد تصل إلى حد التناقض يختلف في مداه من فصل إلى آخر ومن معلم إلى آخر. مما يصعب وصف حجم الهوية وإصدار أحكام إصلاحية وتطويرية على سائر بيئات التعلم في المجتمعات أو في المجتمع الواحد، لوجود أنواع شتى من تلك الممارسات على صعيد الواقع بعضها بعيدة عن الصحة في مظاهر التعليم والتدريس والتي لا تتلاءم مع المنهج الرسمي.

¹. توفيق أحمد مرعي - محمد محمود الحيلة، المناهج التربوية الحديثة، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط2، 2000. ص ص. 42-

43.

². سهيلة كاظم الفتلاوي، أحمد هلاي- مرجع سابق-، ص. 52

³. المرجع نفسه، ص. 57.

إن الاختلافات الواسعة في تنفيذ المنهج والتنوع في الممارسات التدريسية من طرائق وأساليب التدريس والتقويم وإدارة الفصل، وسواها من معلم إلى آخر أدى إلى تباين الخبرة المتكونة لدى المتعلمين. وبالتالي تنوع واختلاف المنهج الواقعي من منطقة إلى أخرى ومن مدرسة إلى أخرى.¹ وفي ضوء ذلك يتجلى الفرق بين المنهج الرسمي الجلي والمعروف، وبين المنهج الواقعي المتنوع وغير المعروف.

ففي نظام مدرسي محدد تأخذ عملية التثقيف صورة برمجة واسعة وشاملة تهدف إلى تدريب وتعليم عدد كبير من المتعلمين وفي مثل هذا النظام فإن الأهداف والبرامج ومخططات التعليم تمثل المستوى الواقعي الذي يتميز بطابع الاستقلال. وهنا يتبدى المنهج الرسمي بوصفه نظاما من النصوص والتصورات والقوانين التي تحدد الأهداف التعليمية العامة، وهناك البرامج التي ترسم حدود ومستويات عملية التعليم في مختلف المستويات.² وفي حقيقة الأمر فإن تحديد الملامح الأساسية للمنهج الخفي تقع بالضرورة في الحدود الفاصلة بين المنهجين، وهنا يتوجب علينا التفكير المعمق في أبعاد وحدود تلك المسافة الفاصلة بين المنهجين الرسمي والواقعي في مستوى الأنظمة التربوية المعاصرة.

وفي الإطار ذاته يرى الدكتور "علي أسعد وطفة" أننا عندما نتحدث عن كتاب روسو "إميل"، على سبيل المثال، يجب علينا أن نميز بين المشروع التربوي في هذا الكتاب وبين إمكانية تطبيقه في دائرة الواقع التربوي. فالمنهج التربوي الذي صوره روسو يتعلق بطفل واحد هو إميل وعلى مقياس إميل. ومما لا شك فيه أنه يوجد دائما مسافة فاصلة بين التصور الذي نضعه للتربية والنتائج التي تحظى بها في نهاية الأمر. وهذا الأمر ينسحب على المنهج المرغوب والواقع التجريبي لهذا المنهج. ومع ذلك فإنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن المسافة الفاصلة بين ما هو متوقع ومحدد في المنهج الرسمي وبين ما هو حاصل في المنهج الواقعي الفعلي متواضعة، وهذا ما نجده في مختلف الفعاليات الإنسانية. ولكن المسألة في المجال التربوي تبدو محفوفة بالصعوبة نسبيا، وذلك لأن العملية التربوية غالبا ما ترتبط بعوامل إنسانية مفرطة الذاتية، حيث تتعلق بوجودان المتعلمين وحريرتهم، كما ترتبط بإمكانية تكييف الفعل التربوي وإعادة تنظيم المناهج وفقا لردود أفعال المتعلمين واستجاباتهم في واقع الأمر.

فالخبراء التربويون يصممون النصوص والبرامج التربوية للمناهج وفقا لتصور يتعلق بتلميذ مجرد أو نموذجي متقارب مع نموذج جان بياجيه والمتمثل في "إميل"، وهنا يمكن كتابة مجلدات حول أهداف التربية وغاياتها وقيمتها وبرامجها دون العودة إلى التلميذ الحقيقي الجالس أمام معلميه بصورة عيانية. ووفقا لهذا التصور فإن تجربة التلميذ الحية في عملية بناء المنهج تستبعد كليا ولا تشكل مصدرا حيويا من مصادر عملية البناء التربوية.³ على الرغم من أن للمنهج الخفي أهمية بالغة، إذ ربما يكون أبعد أثرا في صوغ

¹. أسعد وطفة، المنهج الخفي في المدرسة هل هو خفي فعلا؟

<http://www.annabaa.org/nbanews/2012/06/071.htm>

². المرجع السابق.

³. حمزة بن قبالن المزيني، المنهج الخفي، مجلة بيار، العدد 44. ندوة حول المنهج الخفي.. والمنهج المعلن، ص-ص، 49-48

توجهات الطالبات والطلاب من المناهج التربوية الرسمية نفسها، وسبب ذلك المكانة التي يتمتع بها المدرس في نفس الطالب مما يجعله يثق به فيتلقى عنه مختلف القيم والتوجهات من غير مساءلة في كثير من الأحيان خاصة حين يكون المعلم منتما عضويا إلى توجه معين¹.

إن استبعاد التجربة الحقيقية الحية للحياة التربوية - التي تتمثل في التلاميذ والمعلمين والإدارة، وفي طبيعة التفاعل القائم بين مختلف أطراف العملية التربوية - يولد نسفا من المفارقات بين التصميمات النظرية والواقع التربوي الحي. وهذا يعني أن الأنموذج النظري للتعليم لا يمكنه وفقا لهذه الحالة، أن يحقق التكيف المستمر للتعليم وتطبيقاته العملية وفقا لتطور العلوم والتكنولوجيا والثقافة وأنماط الحياة والعمل. وبالتالي فإن هذه المفارقة بين النظرية والتطبيق تبني للفروق الكبيرة بين المنهج الشكلي أو المنهج المفترض، وبين الواقع الفعلي والحقيقي للعملية التربوية.

وعلى أهمية التباين بين المنهجين إلا أنهما في حقيقة الأمر متكاملان أكثر من كونهما متناقضين. فالمنهج الرسمي المعين يوضع في افتراض التطبيق من قبل المعلمين والمدرسين والتلاميذ. وهذا المنهج يوصف بأنه شكلي بالمعنى السوسولوجي للمؤسسات، وهو يتضمن قواعد ووظائف محددة، ومستويات متعامدة مترابطة هرمية، وتقسما للمهام وتحديد الكفاءات والخبرات والإجراءات والقرارات ومستويات التنفيذ وطرائق التحويل².

اعتمادا على ما سبق يمكن القول بأن تعديل السلوك عن طريق عملية التعلم هو محصلة لتأثيرات المنهج الرسمي، الواقعي والخفي، ولذلك فالتكامل بين هذه المناهج والتأكيد على التربية الصحيحة من خلال التربية الموازية أو غير المدرسية، يعد شرطا أساسيا لحدوث التعلم الفعال. لأنه كلما زاد تكيف التلاميذ مع المنهج والمدرسة والحياة كلما زادت فعالية تعلم هؤلاء التلاميذ.

رابعا- المكونات الأساسية للمنهج الخفي

انطلاقا من أن تأثير المنهج الخفي يمكن أن يكون أوسع نطاقا وأشد وقعا على المتعلمين من تأثير المنهج الرسمي، فإن الأمر يستوجب ضرورة إيلاء ذلك المنهج الاهتمام اللازم وتوظيفه بطريقة إيجابية من قبل القائمين على وضع السياسات التربوية، الأمر الذي يستدعي التعرف على عناصره، حيث يتكون المنهج الخفي من عناصر عديدة تشكل أجزاءه الأساسية وهي:

- ✓ السلوك الشخصي للمربي، وعلاقته بالمربين الآخرين، وعلاقته بالتلاميذ...
- ✓ طريقة تناول المناهج المكتوبة لبعض المسائل قد تكون ضعيفة أو خاطئة فتؤدي إلى عكس المراد.
- ✓ النظام الاجتماعي والسياسي السائد يؤدي إلى آثار جانبية في العملية التربوية.
- ✓ التناقض بين المنهج المكتوب وبين حاجات المجتمع تؤدي إلى آثار تربوية جانبية. مثال ذلك: المفارقة بين الأهداف التربوية المعلنة، وبين المحتوى الذي ينبغي أن يجسد تلك الأهداف.

¹. أسعد وطفة، المنهاج الخفي في المدرسة هل هو خفي فعلا؟

<http://www.annabaa.org/nbanews/2012/06/071.htm>

². <http://www.al-jazirah.com.sa/2008jaz/may/9/rj10.htm>

✓ البناء المدرسي بما يحويه (أو يفتقده) من ملاعب ومسجد ومختبرات ومكتبة وتدفئة وتهوية، ومقاعد مريحة وحجم مناسب لغرفة الصف ولعدد التلاميذ فيها، وأجهزة الكمبيوتر وقاعات للمحاضرات والأنشطة..، كل ذلك من المنهج الخفي.

✓ درجة تأهيل المربي ودرجة تفاعله مع العملية التربوية، وانسجام سلوكه مع الأهداف التربوية وإيمانه بها.

✓ استبدال مربي بآخر، أو انتقال التلميذ من مدرسة إلى أخرى، أو من حي إلى آخر وما يؤدي إليه ذلك من تغير في السمات الشخصية والبيئية والاجتماعية.

✓ قد يغلب في بعض الأحيان تأثير المنهج الرسمي المعتمد فيكون خفيا في مصادره وآليات تأثيره، لكن نواتجه تكون هي الأكثر ظهورا للعيان في المؤسسة التعليمية أو المجتمع بشكل عام¹.

وتحدد "ميغان" Meighnan مكونات المنهج الخفي في ستة عناصر وهي:²

• ترتيب الفصل ووضع الأثاث داخله.

• المرافق المدرسية: حيث يوجد في كل مدرسة مرافق خاصة منها: المكتبة، المختبرات العلمية، غرفة التربية الفنية، المسرح، المسجد، المتحف، المعارض المتنوعة..). وفي هذه الأماكن عادة تمارس الأنشطة اللامنهجية. وفي هذه الأماكن يتعلم الطلبة خبرات ومبادئ وعلوم ومعارف أخرى خارج المنهج المدرسي.

• الجدول الدراسي ويقصد به ما يسود الصف الدراسي من تصنيف للتلاميذ في المدرسة بناء على أعمارهم ونضجهم وقدرتهم التعليمية. بالإضافة إلى توزيع الوقت على المواد.. وكلها عوامل تؤثر على عملية تعلم التلاميذ.

• ثقافة المعلم وعلاقتها بالثقافة السائدة فمثلا عند شرح المدرس لموضوع ما تجد أن رغبة الطلبة في الاستفادة من الموضوع المشروح مقرونة بأهميته في الامتحان، وهذا النوع من التعليم يعرف بالصفوف الموجهة حسب نظام المسؤولية، أي فائدة الطلبة من المادة موجهة ومحسوبة حسب تفسير الطلبة لأهمية المادة المشروحة. ثم إن الاستفادة من هذا الموضوع مقرونة أيضا بالخلفية الثقافية لدى الطلبة.

• خلفيات المدرسين حيث يختلف المعلمون في فهمهم وفي تخطيطهم وفي كيفية صنعهم للقرارات الخاصة بتنفيذ المناهج الرسمية. فالمعلم يأتي إلى الفصل الدراسي بمعرفة شخصية مبنية على أغراضه التطبيقية ومستقاة من الخبرات التي عاشها المعلم بنفسه.. ولهذا فإن إعداد المدرس يلعب دورا هاما في قدرته على التعامل مع المنهج المكتوب وكذلك تنفيذه بالصورة المطلوبة.

¹. فائزة محمد فخري العزاوي- مرجع سابق- ص ص، 58-60.

². آدم عصام الدين برير، التخطيط التربوي والتنمية البشرية، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2006. ص، 69.

• انحياز الكتاب المدرسي: حيث يكتسي الكتاب المدرسي أهمية كبيرة وغالبا ما يعتبر المصدر الرئيس للمعلومات، كما تعتمد المناهج التربوية اعتمادا كبيرا عليه، وبذلك يحتل الكتاب المدرسي مكانة هامة، وهو بمثابة الوعاء الذي يتضمن المعلومات في مختلف جوانب المعرفة، تكون وسيلة من وسائل تطبيق النظريات والتقنيات التي تحقق هدف العملية التربوية.¹ ويبقى عمل الطالب في المدرسة يبدأ ببداية الكتاب المدرسي وينتهي بنهايته.

خامسا- تقييم الدور المزدوج للمنهج الخفي في العملية التربوية:

إن المنهج الظاهر أو الرسمي والذي صمم بشكل مدروس ومقصود لتحقيق أهداف معينة معرفية ومهارية ووجدانية، يشكل معظم ما يكتسبه المتعلمون نتيجة لتفاعلهم المنظم والمخطط مع مكونات ذلك المنهج. إلا أننا وعلى الرغم من ذلك نكتشف أن ثمة خبرات أخرى اكتسبها المتعلمون لم يتضمنها المنهج الظاهر أو الرسمي ولم يخطط لاكتسابها، فمن أين اكتسب المتعلمون هذه الخبرات؟ إن تفاعل التلاميذ فيما بينهم داخل الفصل وخارجه، وتفاعلهم مع البيئة المدرسية بكل مكوناتها ومرافقها أكسبهم خبرات جديدة لم تقصد المدرسة إكسابهم إياها، وكأن تعلمنا حدث خارج سيطرة المدرسة، هذا التعلم غير المقصود هو المسئول عن الخبرات المكتسبة خارج نطاق المنهج الرسمي وهو ما يمثل المنهج المستتر أو الخفي.²

ويقوم "دومينييه" Dominisé عند حديثه عن الوجوه الخفية للتعليم بتحليل الجوانب الأساسية في المنهج الخفي فيرى فيه كل أشكال المعرفة التي تتحقق من غير معرفة المربي نفسه، فالأطفال والمراهقون اليوم يقضون ما بين عشر وعشرين سنة من حياتهم في مؤسسات مدرسية، حيث يتلقون ما بين 25 و 35 ساعة تعليم وتدريب أسبوعيا، وتتراوح هذه الفترة ما بين ثلاثين وأربعين أسبوعا في السنة، وهنا وفي هذه الفترة الزمنية تتشكل شخصياتهم ويكون رأسمالهم الثقافي، وهنا في هذه المدارس تتأصل تجاربهم المشكلة والمكونة لهم. ومع ذلك فإن نسقا من هذه التجارب يبقى خفيا فيما يتعلق بتأثيرها في عيون التلاميذ وآبائهم. والسؤال هل يكون هذا الجانب الخفي على التلميذ معلوما عند معلميه؟ هل قام هؤلاء المعلمون بتوظيف المنهج الخفي على غير علم طلابهم؟ وهنا أيضا يمكن القول افتراضا بأن المعلمين أنفسهم لا يعرفون ماذا يفعلون، أو على خلاف ذلك بأنهم يعلمون جيدا ما يحدث في ممارساتهم التربوية اليومية.³

وإذا كانت الأهداف محددة واضحة فسيظهر أثرها بشكل حاسم في المحتوى، ثم في الأنشطة، ومن خلال الطرائق والوسائل، ويكون التقويم هو الحكم في تحقيق الأهداف. وإذا كان الهدف تغييرا سلوكيا إيجابيا قابلا للقياس يظهر في شخصية التلميذ فإن ما يفاجئ الإدارة التربوية أو المربي أو المجتمع، أن تظهر

¹. يعن الله علي يعن الله القرني: المنهج الخفي سلاح ذو حدين،

<http://www.hafaralbatin.com/showthread.php?t=280432008>

². المرجع السابق.

³. وسيم القصير . دور المنهج الخفي في مدارسنا.

http://www.albahethon.com/?page=show_det&id=1686

سلوكيات في شخصيات هؤلاء التلاميذ لم تكن ملحوظة في الأهداف، بل قد تتعارض مع تلك الأهداف..، وهذا يستدعي التفكير: كيف وجدت هذه السلوكيات؟ وما هي العوامل التي أدت إليها؟ ومن بين هذه السلوكيات:

- انتشار التدخين بين التلاميذ، مع أن الكتب المدرسية تحذر من ذلك.
 - المفاهيم الغذائية الخاطئة، مع أن المناهج تبيّن المفاهيم الغذائية الصحيحة. و هذه الأمثلة وغيرها، لا تمثل حالة شاذة أو حالات فردية إنما هي تعبر عن ظاهرة اجتماعية.¹
- ومع أن مصطلح المنهج الخفي عادة يستعمل ليحمل دلالة سلبية، إلا أنه من وجهة نظر من يسعى نحو النمو الإنساني الأمثل، يمكن أن يكون ذلك النوع من التعلم مرغوبا أو غير مرغوب فيه. فالتأمل لمعظم الأطروحات التربوية التي تناولت المنهج الخفي، يجد أنها تؤكد على أنه مصدر كل الشرور، وأنه يشكل خطرا جسيما على التربية المدرسية المنظمة والتلاميذ ومجتمعهم على حد سواء. إن القول بالآثار والإفرازات الضمنية السلبية للمنهج الخفي أمر مسلم به، ولكن هذا التوجه يغفل أن لهذا النوع من المنهج دورا بارزا ومهما وجوهريا في تعزيز المنظومة القيمية للمجتمع، كالانتماء والوطنية والتعاون وغيرها من القيم النبيلة. كما أنه يؤدي دورا بارزا في إكساب الطلاب مجموعة من المهارات والاتجاهات الإيجابية التي تمكنهم من التفاعل الاجتماعي ويكون لها مردودا إيجابيا على صحتهم النفسية.²

وللمنهج الخفي عدة إيجابيات أخرى مثل:

- يوجه سلوك الطلاب في المدرسة.
 - يحدد معايير سلوك الطلاب.
 - يمكن أن يؤدي المنهج الخفي إلى تحقيق أهداف أكاديمية يصعب تحقيقها عبر المنهج المعلن.³
- وبالمقابل للمنهج الخفي العديد من الجوانب السلبية غير المقصودة، والحقيقة أن هذه النواتج هي محصلة لمجموعة من المصادر، يعد المعلم واحدا منها. كما يعتبر الكتاب المدرسي أحد مكونات المنهج الرسمي، فهو يشكل المحتوى الدراسي إلا أنه يعد من أهم مصادر أو مكونات المنهج الخفي. فما يحويه من رسائل أو رسوم أو أشكال تنعكس سلبا أو إيجابا على خبرات الطلاب، ومثال ذلك ما يرد في طياته من عبارات قد تكون مسيئة لبعض المعتقدات أو الأشخاص، كما قد تظهر المناهج الخفية مجموعة من الرسائل المستترة في محتوى وعرض بعض الكتب المدرسية متمثلة في أسماء وأفعال وأمثلة ومواقف مغلقة يريد

¹. أسعد وطفة، المنهاج الخفي في المدرسة هل هو خفي فعلا؟

<http://www.annabaa.org/nbanews/2012/06/071.htm>

². أسعد وطفة، المنهاج الخفي في المدرسة هل هو خفي فعلا؟

<http://www.annabaa.org/nbanews/2012/06/071.htm>

³. إسحاق الفرخان، توفيق مرعي-مرجع سابق- ص، 28.

مرسلوها أن ينظر التلاميذ إلى مجتمعهم نظرة توافق نظرتهم لا كما يرغب المجتمع متمثلاً في أهدافه المستمدة من سياسات الدولة ودستورها¹. ومن سلبيات المنهج الخفي كذلك أنه²:

- قد يتعارض مع مصالح نسبة كبيرة من الطلاب المحرومين الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا، ولا يستطيعون تكيف أنفسهم مع البيئة المدرسية المسماة المنهج الخفي. وهو ما عبر عنه الكثير من السوسولوجيين أمثال: "بورديو" و"باسيرون" و"برنشتاين" وغيرهم.
- كما يمكن القول أن السلوك الاجتماعي الذي يكتسبه المتعلم من المدرسة هو نتاج المنهج الخفي.

وبناء على ما تقدم يمكن القول بأن أهداف المنهج المعلن قد تتكامل وأهداف المنهج الخفي وقد تتعارض معها.

إن مجالات التعلم المرغوبة وغير المرغوبة والتي يتيحها المنهج الخفي اليوم هي كبيرة بل وكبيرة جداً، ويحددها الدكتور علي أسعد وطفة في مقاله المعنون: "المنهج الخفي في المدرسة هل هو خفي حقاً؟" والذي يذهب إلى أننا عندما نطلب من مجموعة من الطلاب في العلوم التربوية في بداية بحت ما حول المنهج الخفي أن يجيبوا عن السؤال الآتي: ما الشيء الذي تعلمته في المدرسة خارج المنهج المدرسي؟ فإننا نجد مجموعة هائلة من الإجابات مثل: تعلمت الحياة مع الآخرين في جماعة في فضاء محدد، أو تعلمت كيف أفضي الوقت، أو كيف أحتمل أحكام الآخرين، أن أحذر الآخرين وأخافهم، أن أتجنب العنف وأدافع عن نفسي، ألا أفقد الكرامة والمكانة، أن أؤدي أدواراً مختلفة في التفاعل مع الآخر.. والقائمة طويلة. إن استعراض هذه القائمة أمام المعلمين صيبيهم حتماً بالدهشة من الأشياء التي ساهموا في تعليمها دون أن يعلموا ذلك في حقيقة الأمر. وعندما يسأل المعلمون سيقولون بالتأكيد هذا محزن ومخيب للآمال ولكنه صحيح إلى حد كبير، فالمعلمون لا يعرفون كل ما يتعلمه التلاميذ في المدرسة، ولكن كثيراً منهم يدرك بصورة عامة وغامضة أحياناً أهمية الخبرات التربوية للطلاب في داخل الصف ودورها في إكسابهم بعض المهارات وأنماط السلوك. فالخفي وفقاً لهذه الصورة ليس خفياً بالمعنى الدقيق للكلمة ولكنه غير معلن وغير مقروء وغير مفكر فيه. وهذا الخفي يتكشف بالبداية والخبرة والذكاء والتحليل، فهناك أمور تربوية كثيرة تحدث في دائرة الصمت وفي الفراغ والخفاء³.

خلاصة :

يشكل المنهج الرسمي في علاقته بالمنهج الواقعي بيئة جيدة للبحث عن أسباب الفشل أو الإخفاق التربوي في بعض الجوانب غير الواضحة بشكل جيد. ولتجنب ذلك الفشل والإخفاق يجب أن لا يكون هناك

¹. أسعد وطفة، المنهاج الخفي في المدرسة هل هو خفي فعلاً؟

<http://www.annabaa.org/nbanews/2012/06/071.htm>

². إسحاق الفرخان، توفيق مرعي - مرجع سابق - ص، 28.

³. المرجع السابق، ص، 28.

تباعدا بين المنهجين الرسمي والواقعي حتى لا يفتح المجال أمام الاختلافات التي قد تصل في بعض الأحيان حد التناقض. كما أنه من الضروري الاعتماد في إعداد الإصلاحات وتطبيقها، على أساس نظري سليم مع مراعاة الواقع التربوي بكل معطياته الملموسة، لأن الاعتماد على قاعدة المحاولة والخطأ ليست مأمونة الجانب في كل الأحوال.

إن تعديل السلوك عن طريق عملية التعلم هو محصلة لتأثيرات المنهج الرسمي، الواقعي والخفي، لذلك فإن حصر المشاكل التي يعانيتها أي نظام تربوي في جانب دون آخر هو قصور في الرؤية. فعلى الجهود الإصلاحية أن تأخذ بعين الاعتبار مختلف الحثيات ذات الصلة، أي كل العناصر المشكلة للواقع التربوي المعاش. وفي هذا الإطار يمكن الاستفادة من الدور الذي يلعبه المنهج الخفي في العملية التعليمية. فلهذا المنهج العديد من الايجابيات كما له العديد من السلبيات، ويمكن توجيهه لتحقيق الأهداف المرجوة، بالتركيز على ايجابياته وجعله أداة مساعدة في الوصول للأهداف الأكاديمية المسطرة ضمن المنهج الرسمي.

*قائمة المراجع :

1. سهيلة محسن كاظم الفتلاوي، هلاي أحمد، المنهاج التعليمي والتوجه الإيديولوجي، دار الشروق، عمان، الأردن، 2005.
2. عبد الحافظ سلامة ، الوسائل التعليمية والمنهج، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2000.
3. إسحاق الفرحان، توفيق مرعي، المنهاج التربوي، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، مصر، 2009.
4. أنتوني غيندنجز ، علم الاجتماع، ترجمة: فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005.
5. وطفة علي أسعد، علي جاسم شهاب، علم الاجتماع المدرسي، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2004.

6. Francois Dubet, Pierre Pourdieu; Le sociologue de l'éducation.

<http://www.homme-moderne.org/societe/socio/dubet/Bml9810.html>

7. محمد فخري العزاوي، المنهج الخفي: فلسفته وتطبيقاته التربوية، مجلة البحوث التربوية والنفسية، العددان التاسع والعاشر.
8. توفيق أحمد مرعي – محمد محمود الحيلة، المناهج التربوية الحديثة، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط2، 2000.
9. عبد الرحمان عبد الله محمد، علم اجتماع المدرسة، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، مصر، 2001.
10. أسعد وطفة، المنهاج الخفي في المدرسة هل هو خفي فعلا؟
<http://www.annabaa.org/nbanews/2012/06/071.htm>
11. آدم عصام الدين برير، التخطيط التربوي والتنمية البشرية، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2006.
12. حمزة بن قبيلان المزيني، المنهج الخفي، مجلة بيادر، العدد 44. ندوة حول المنهج الخفي.. والمنهج المعلن.
13. يعن الله علي يعن الله القرني: المنهج الخفي سلاح ذو حدين،
<http://www.hafaralbatin.com/showthread.php?t=28043>
14. وسيم القصير . دور المنهج الخفي في مدارسنا.
http://www.albahethon.com/?page=show_det&id=1686